

بريطانيا والدولة السَّعُودِيَّة الأولى

للدكتور: إسماعيل ياغي
الأستاذ المساعد في الكلية

شبه جزيرة العرب في العهد العثماني :

في مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، كانت شبه الجزيرة العربية تعاني من التمزق السياسي لعوامل داخلية وخارجية . فقد انقسمت الجزيرة إلى عدد كبير من الوحدات السياسية التي لم تكن مستقرة ، الأمر الذي أدى إلى تعرضها لعدد من الأحداث التي عصفت بأمنها الداخلي والخارجي وعرضت سلامتها للخطر . وانشق سكان الجزيرة على أنفسهم لاختلافات مذهبية حادة . فقد انقسموا بين الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة ، فكان منهم الشيعي والزيدي في اليمن والخارجي الأباضي في عمان ، والسني الشافعي في جنوبي اليمن وعدن والسني الحنبلي في أواسط الجزيرة والشيعي في السواحل والجزر الشرقية ، ومزيج كبير من كل هذا في الحجاز . كما اختلفت طرق المعيشة والحياة الاجتماعية من مكان إلى آخر . فعاش قسم كبير حياة قبلية بدوية بينما سكن كثيرون القرى واشتغلوا بالزراعة وامتحن سكان المدن التجارة .

وتعرضت الجزيرة العربية منذ القرن السادس عشر إلى عوامل خارجية عديدة زادت في تمزقها وتفككها السياسي . فقد ازداد تدخل المماليك في غرب الجزيرة لاختضاع سائر الأجزاء الغربية لحكم مصر . وتعرضت سواحل الجزيرة إلى الغزو البرتغالي الذي نجح في توطيد أقدامه على السواحل الشرقية وفشل في الأماكن الأخرى . وحل العثمانيون محل المماليك في غرب الجزيرة ونازلوا البرتغاليين في السيطرة على

شرقها . وتدخل الصفويون الإيرانيون محاولين بسط نفوذهم على الساحل الشرقي وجزره ، ودخل الانجليز والهولنديون هذا الميدان أواخر القرن ، ونجح الانجليز في احتكار السيطرة على مياه شبه الجزيرة ابتداء من مطلع القرن الثامن عشر الميلادي^(١)

وعلى العموم ، فإن الحكم العثماني لم يمتد إلى قلب شبه الجزيرة العربية بعد سقوط الحجاز واليمن في أيدي العثمانيين ، بل تركز على أطرافها الغربية ، أو بالأحرى على سواحل البحر الأحمر الشرقية . وفي خلال العقد الخامس من القرن السادس عشر حاولت الدولة العثمانية غزو وسط شبه الجزيرة العربية ، فأرسل السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) حملة كبيرة حوالي عام ١٥٥٠م بقيادة باشا دمشق لإخضاع قبائل شمر ونجد إلا أن هذه الحملة قد فشلت^(٢) .

وفي أوائل العقد الأخير من القرن السادس عشر ، غزا الأتراك العثمانيون بمساعدة قبائل المنتفق منطقة الإحساء واحتلوها ، وعينوا فاتح باشا والياً عليها^(٣) . ولا شك أن مركز الأتراك العثمانيين قد قوي في الجزء الشرقي من شبه جزيرة العرب عندما استعادوا بغداد من الاحتلال الفارسي عام ١٧٢٨م في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) . كما تحسن وضع الأتراك العثمانيين إبان عهد السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) عندما احتل مصطفى باشا مدينة البصرة عام ١٦٦٧ ، إلا أن الحكم العثماني في الاحساء لم يلبث أن انتهى عام ١٦٧٠م بفضل قبيلة آل حميد من بني خالد التي ظلت تناضل الأتراك نضالاً مريباً طوال ثمانين عاماً تقريباً^(٤) . وفي خلال هذه الفترة تداول حكم الاحساء من الأتراك العثمانيين أربعة باشوات

(١) عبد الكريم غرايبة (الدكتور) : مقدمة تاريخ العرب الحديث ص ٢٤٣-٢٤٤ دمشق ١٩٦٠ .

(٢) Benoist, Méchin, J: Arabian Destiny, PP. 45-46. Translated from the French by Denis Weaver, (London, 1957).

(٣) Philby, H. St. John: Saudi Arabia, PP. 10-11 (London 1955).

(٤) السيد رجب حراز (الدكتور) : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب (١٨٤٠-١٩٠٩) ،

ص ١٢٨-١٢٩ ، القاهرة ١٩٧٠ .

هم فاتح باشا ثم علي باشا فمحمد باشا ، وأخيراً عمر باشا الذي استسلم لبراك بن غرير آل حميد الخالدي^(١) .

وعلى هذا النحو ، انهار سلطان الأتراك العثمانيين في شرق شبه الجزيرة العربية منذ أوائل العقد السابع من القرن السابع عشر ، كما انعدم سلطانهم على قبائل نجد وشمر ، واكتفوا منذ منتصف القرن السادس عشر بممارسة سيادة اسمية على وسط شبه الجزيرة العربية^(٢) . وذلك بسبب استقلال اليمن عام ١٦٣٥م وانسحاب الجيوش العثمانية منها ، وتحول النفوذ العثماني إلى سيادة إسمية بحتة في الحجاز ، وأخيراً ضَعُفُ هبة سلاطين آل عثمان بعد مراد الرابع وانشغالهم بالفتن الداخلية والحروب الخارجية .

وعمل بنو خالد منذ أن طردوا الأتراك العثمانيين على بسط نفوذهم على المناطق المجاورة ، واستطاعوا بالفعل أن يسيطروا على الشواطئ الغربية للخليج العربي من شبه جزيرة قطر جنوباً إلى البصرة شمالاً ، كما راحوا يتدخلون في شئون نجد . وعلى أواخر القرن السابع عشر كان سكان نجد يعترفون بأن شيخ بني خالد هو أقوى جيرانهم ، فسعوا إلى إرضائه بشتى الوسائل وبخاصة أن معظم مناطق الجزيرة العربية مفككة ومقسمة إلى عدد كبير من الإمارات والمدن المستقلة التي تحكم من قبل أمير أو شيخ إحدى القبائل الذي يستند إلى عصبية قوية . وكان الدين لا يزال بين هذه القبائل في شكله البدائي إلى حد كبير ، إذ أهملت بعض شعائره بين سكان المدن^(٣) . ويتضح مما رواه الرحالة وليم بلجريف (William Gifford Palgrave) أن الكثير من البدع والخرافات والعادات التي كانت منتشرة في عصر الجاهلية قبل

(١) أحمد مصطفى أبو حاكمة (الدكتور) : تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة ، ص ٤٨ القاهرة ١٩٦٨ .

(٢) Benoist-Méchin, J: op. cit., p. 46.

(٣) Dickson, K.R.P.: Kuwait and her Neighbours, P. 111. (London 1956),

ظهور الاسلام ، كانت لا تزال تجد مكاناً لها بين القبائل ^(١) .

وكان الانحراف عن الدين الاسلامي قد عم جميع بلاد العالم الإسلامي ، فقد انتشر الكثير من البدع والخرافات ومظاهر الشرك كالدعاء والنذر والذبح وصرف بعض أنواع العبادات الأخرى لغير الله ، والتوسل بالأولياء الصالحين وتقديسهم بل وعبادتهم أحياناً ، والاعتقاد بالجمادات كالأشجار والحجارة في جلب النفع وإبعاد الضرر ، حتى أصبح كثير من المسلمين بعيدين كل البعد عن روح الاسلام وحقيقته ^(٢) . ويرجع ذلك إلى حالة الجمود الفكري والتخلف العلمي الذي وقعت تحت تأثيره الأمة الإسلامية عندما دخلت الدولة العثمانية دور الانحطاط مما أدى إلى تفشي الأمية وانتشار الجهل ، وسيطر مشايخ الطرق الصوفية على عقول الناس وأفكارهم ووجهوا أتباعهم إلى تقديس الموتى من الأولياء والصالحين والأحجار والأشجار ^(٣) .

ولا يخفى أن انتشار البدع والخرافات وارتداد القبائل إلى ممارسة عادات الجاهلية الذميمة ، كان مبعث ظهور الدعوة السلفية على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي أخذ يعمل في سبيل تهذيب عادات سكان نجد وتنقية التعاليم الدينية مما شابها من ضلال وشرك . وكان لب دعوته الرجوع بالدين إلى الوحداية ، فلا مصدر إلا القرآن ولا حكم إلا حكم السنة ^(٤) .

قيام الدولة السعودية الأولى :

وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥هـ / ١٧٠٣م - ١٢٠٦هـ / ١٧٩٢م) قد نشأ في بيئة علمية ، فقد كان والده وجده سليمان قاضيين في العينة مسقط رأسه ،

(١) أنظر كتاب رحلة بلجريف بنون :

Palgrave, W.G.: A Narrative of a Years Journey through Cential and Eastern Arabia, 2 Vols. (London 1865).

(٢) حسين ابن غنام : تاريخ نجد (روضة الأفكار والإفهام) ج ١ ص ٧-١٤ الرياض ١٣٦٨ هـ .

(٣) عبدالله الشبل : مذكرة تاريخ الدولة السعودية ، ص ٢٧ ، الرياض ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

(٤) أمين الريحاني : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ، ص ٣٦ ، بيروت ١٩٥٤ .

ونشأ الشيخ محمد على المذهب الحنبلي ودرس على أبيه في العيينة ثم قصد البصرة ، فأقام فيها أربع سنوات وتأثر بتعاليم ابن تيميه . وعاد الشيخ محمد إلى أبيه الذي كان قد لجأ إلى حريملاء بسبب خلافه مع حاكم العيينة . وشرع الشيخ محمد بالدعوة ولكن والده منعه من ذلك ، لكنه باشر في دعوته بعد وفاة والده ، غير أنه جوبه بمعارضة ، فانتقل إلى العيينة ، فوجد بيئة صالحة لتقبل ما يدعو إليه . فأنكر الشرك وحارب البدع والتوسل إلى الأولياء والأضرحة . وبذلك انتقلت الدعوة من القول إلى العمل والتطبيق . وساعد على ذلك أن أمير العيينة عثمان بن معمر قد آمن بدعوة الشيخ ورحب به وأكرم وفادته وسمح له بالعمل ، فبدأ الشيخ بهدم قبة قبر زيد بن الخطاب وقطع الأشجار التي يتبرك بها الناس ، ورجم الزانية حتى ماتت . ولكن عثمان أمير العيينة اضطر إلى إخراج محمد بضغظ من أمير الأحساء ، فلجأ الشيخ إلى الدرعية لقربها ولما يعرفه من سيرة حسنة لحاكمها وأميرها^(١) .

استقبل حاكم الدرعية محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبد الوهاب استقبالاً حسناً ورحب به ، فاطمأن الشيخ واتباعه وخاصة بعد أن اعتنق حاكم الدرعية الدعوة وتعهد بنشرها في بلاد العرب ، كما وعده أن يمنعه مما يمنع منه نساءه وأولاده^(٢) . فبايعه الشيخ محمد على أن يكون إماماً يتبعه المسلمون وقال في مبايعته له : « وأنا أبشرك بالعز واليمن والتمكين والنصر المبين ، وهذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم ، فمن تمسك بها وعمل بها ونصرها ، ملك بها العباد والبلاد ، وأنت ترى بلاد نجد كلها قد أطبقت على الشرك والجهل والفرقة والاختلاف ، وقتال بعضهم بعضاً ، فأرجو أن تكون إماماً يجتمع عليه المسلمون وذريتك من بعدك »^(٣) . ثم تعاهد الشيخ والإمام محمد بن سعود على نشر كلمة التوحيد واشترط الإمام محمد

(١) عثمان ابن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ١٧-١٨ ، ابن غنام : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٢) ابن بشر : المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٣) ابن غنام : المصدر السابق ، ص ٥٠ . أمين الريحاني : المصدر السابق ص ٤٦ .

بن سعود على الشيخ ألا يرغب عنه إن أظهره الله فوافق الشيخ على ذلك . وأصبحت الدعوة السلفية منذئذ دعوة دين ودنيا ، وطمحت إلى توسيع نطاق نشاطها في بلاد العرب قاطبة ، بل في بلاد المسلمين عامة ، وغدت الدرعية مركزاً دينياً وأخذ الشيخ في ممارسة نشاطه الديني والسياسي والاجتماعي ، فأرسل البعثات العلمية إلى أنحاء مختلفة ، وتسيير الجيوش في اتجاهات مختلفة ، حتى أصبحت الدرعية قاعدة لنشر الدعوة السلفية وبناء الدولة السعودية فيها ^(١) .

وما لبث محمد بن سعود أن قضى نحبه عام ١٧٦٥ ، فخلفه ابنه عبد العزيز الذي صار يغزو في شبه جزيرة العرب « شمالها وشرقها وجنوبها » ، « ففتح الرياض ثم القصيم وغزا الأحساء كما وجه سراياه إلى الجوف شمالي النفوذ واستولى على وادي السرحان وضمه إلى حكمه ، وسار ابنه سعود في طريقه ، فغزا منطقة الحرج والأفلاج ووادي الدواسر ووصل في فتوحاته إلى عسير غرباً وإلى عمان شرقاً » ^(٢) .

وجدير بالذكر أن السعوديين قد اتخذوا من بني خالد موقف المدافع لا المهاجم مدى عشرين سنة ، أي منذ عام ١٧٤٥ إلى عام ١٧٦٥ ، ولكنهم اتخذوا بعد ذلك موقف المهاجم . إذ توالى غزواتهم على أرض الأحساء ، واشتدت بنوع خاص في الفترة ما بين ١٧٩٣ و ١٧٩٥م حتى تم لهم القضاء على نفوذ بني خالد في الأحساء وشرقي شبه الجزيرة العربية ^(٣) . واعتنق الكثير من القبائل الواقعة على حدود سلطنة عمان الدعوة السلفية وأبرزهم القواسم ومركزهم الرئيسي في رأس الخيمة وكانوا يدفعون الجزية للأمير السعودي ^(٤) . كما كانوا يرسلون خمس الغنائم إلى حكومة الدرعية بنجد ^(٥) .

(١) عبدالله الشبل : المصدر السابق ص ٣٧ .

(٢) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ، ص ٣٢٩-٣٣٠ ، مكة ١٩٣٣ .

(٣) محمد أنيس (الدكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٤٤ ، القاهرة ١٩٦١ .

(٤) صلاح العقاد (الدكتور) : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ١١٠ ، القاهرة ١٩٧٤ .

(٥) Bombay Selections Vol 24. P. 432 435.

وقد امتدت حدود الدولة السعودية في عهد الأمير عبد العزيز فشملت بلاد نجد والاحساء والبحرين وقطر ومناطق في الحجاز . وغدا « البر الذي تحت حكمه . . . أراضي واسعة . . . وصار تحت أمره عربان لا تحصى . . . وأما حكمه ففي كافة بلاده لم يوجد من يحلف يمينا بالله ولا بغيره . . . ولا يوجد بينهم خصام لزيادة طاعتهم له ولذلك فهم في راحة . وأما عبد العزيز فكأنه واحد منهم وليس له تمييز . . . وهذه الاستقامة في الحكم أوجبت أن لا يكون في تلك الأصقاع بينهم لا متعد ولا حرامي ولا خوف طريق ومواشيهم سارحة على الدوام من غير خوف . . . وهو عادل يأخذ العشر ولا يأخذ كومرك »^(١) .

موقف القوى الإسلامية من الدولة السعودية الأولى :

وكانت هذه الصفات مخيفة تهدد المجتمع العثماني القائم في الشمال والشرق ، فلا عجب إذا ما نظرت الدولة العثمانية إلى الدعوة السلفية والدولة السعودية الأولى نظرة جدية ، واعتبرتها خطراً لا يقل عن خطر الفرنسيين في مصر ، فأرسلت تعليمات مشددة إلى ولاية بغداد والشام وإلى شريف مكة بوجوب اتخاذ اجراءات عسكرية ضد السعوديين^(٢) . ولهذا أطلق العثمانيون اسم « الوهابية » على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لإظهار الشيخ بأنه مبتدع مذهب إسلامي جديد ، ومن هنا تنفذ إلى محاربته فكرياً وسياسياً . وتناقلت كتب الأجانب لفظ « الوهابية » عن التسمية العثمانية وذلك للتقليل من شأن الدعوة وبالتالي القضاء عليها . ويرجع ذلك إلى أن الدولة العثمانية ستفقد نفوذها ومكانتها في الجزيرة العربية وكذلك فقدانها للأماكن الإسلامية المقدسة مما يفقدها مركزها الديني المرموق في العالم الإسلامي . كما قامت الدولة العثمانية بالتشجيع بالسعوديين وترويج الأكاذيب عن الدعوة السلفية^(٣) .

وأخذت الدولة العثمانية على عاتقها مقاومة الدولة السعودية ، فأرسل سليمان

(١) ابن بشر : المصدر السابق ص ١٢٥-١٢٦ .

(٢) عبد الكريم غرايبه (الدكتور) : المصدر السابق ص ٣٥٨ .

(٣) محمد عبدالله ماضي (الدكتور) : النهضة الحديثة في جزيرة العرب ص ٥٦-٥٩ .

باشا والي العراق حملة كبيرة مكونة من ثمانية عشر ألفاً من الفرسان والجنود النظاميين لغزو الاحساء وذلك في عام ١٧٩٩م وفشلت الحملة في تحقيق أهدافها فتراجعت إلى العراق بعد أن خسرت مدفعيتها وكثيراً من متاعها وتكبدت خسائر فادحة^(١) .
 ووقع الطرفان اتفاقية هدنة بينهما مدة ست سنوات ، ورافق مبعوث سعودي قائد الحملة علي باشا إلى بغداد حيث تم التصديق على الاتفاقية^(٢) . وسيطر سعود على الاحساء وعاقب العناصر التي أعلنت خضوعها للأتراك^(٣) .

وأعقب ذلك أن غزا سعود عام ١٨٠٠ مدينة كربلاء والمدن العراقية الجنوبية وأزال رجاله منها القباب والمشاهد ، ونقلوا ما فيها من كنوز الشيعة الموروثة من الذهب والفضة وغيرها ، وقتل عدد كبير من سكان المدينة^(٤) .

واجتاح عالم الشيعة رعب ترتعد له الأوصال بعد أن بلغتهم أنباء المذبحة في كربلاء وهدد شاه إيران بالانتقام والغزو واستعادة الأموال واسترجاع الأسرى^(٥) .
 فقد كان الإيرانيون الشيعة يرون في مبادئ الدعوة السلفية السنية التي تبناها آل سعود خطراً يهدد كياناتهم في الوقت الذي كان فيه أتباع الدعوة يرون في مبادئ الشيعة ، خروجاً على تعاليم الاسلام . ولذا فإن الحكومة الفارسية (الإيرانية) اتخذت موقفاً معادياً لآل سعود منذ البداية وحتى انهيار الدولة السعودية سياسياً^(٦) .

أما سليمان باشا والي بغداد فقد ذهل ولم يدر ماذا يفعل وترك الأمر للمفوض البريطاني في بغداد هارفورد جونز « Harford Jones » ليعمل على تأمين إطلاق سراح الأسرى مقابل فدية مالية^(٧) . ويبدو أن المفوض البريطاني قد أشار عليه القيام

(١) Philby, H. St John: Saudi Arabia, PP. 91-92.

(٢) Kelly, J.B.: Britain and the Persian Gulf (1795-1880) P. 100 (Oxford 1968).

(٣) Dickson, H.R.P.: Kuwait and her Neighbours, P. 114.

(٤) أحمد علي : آل سعود ، ص ٤٨ ، مكة ١٩٥٧ .

(٥) Kelty, J.B.: op. cit., p. 100.

(٦) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (الدكتور) : الدولة السعودية الأولى ص ٢٨٩-٢٩٠ القاهرة ١٩٧٦ .

(٧) Kelly, J.B.: op. cit., P. 100.

بحملة ضد السعوديين ولكنها فشلت ولم تحقق أهدافها ، وهذا يؤكد دور بريطانيا في إثارة الدولة العثمانية والفارسية على مقاومة الدولة السعودية كي تفتت القوى الإسلامية وتمزقها وتستطيع بالتالي أن توطد نفوذها في الخليج بعد القضاء على الدولة السعودية .

امتداد الدولة السعودية وتوسعها :

ولم يمض وقت طويل حتى اتجه السعوديون إلى الحجاز فدخلوا مكة في عام ١٨٠٣ بقيادة سعود من غير أن يستل الشريف غالب سيفاً واحداً للدفاع عنها ، بل أثر الهرب إلى جده^(١) . وعين سعود الشريف عبد المعين بن مساعد شقيق غالب أميراً على مكة ، وبعد عامين استولى السعوديون على المدينة المنورة ، وحاربوا كل ما لا يتفق مع ما آمنوا به من بساطة الإسلام الأولى . وبعد سقوط الحجاز اتجهت أنظار السعوديين إلى الشمال ، فوصلوا إلى حوران والكرك ووقفوا منتصرين على أبواب الشام وفلسطين ، وأوقعوا الهزيمة بجند الدولة الذين خرج بهم والي الشام عبدالله العظم للحج في عام ١٨٠٥^(٢) .

وكان السعوديون قد أبدوا اهتماماً خاصاً بقطر والبحرين وعمان وتوابعها في منطقة الخليج ، فقد أخضع القائد السعودي ابراهيم بن عفيصان قطر في عام ١٧٩٢ واستطاع إخضاع معظم قراه^(٣) . وكذلك نجح ابراهيم بن عفيصان في دخول البريمي عام ١٧٩٥م بعد أن فشلت محاولات القائد مطلق المطيري ، وأنشأ حصن الصبارة في منتصف الطريق بين البريمي وحماسا . وفي عام ١٨٠٠ عين سالم بن بلال الحرق أميراً على منطقة البريمي وأخذ يمد النفوذ السعودي هناك تدريجياً داخل عمان حتى بلغ مداخلها الغربية وأخضع كل واحات البريمي^(٤) . ووجه إلى سلطان مسقط

(١) De Guary, Gerald: Rulers of Mecca, PP. 186-187. (London 1951).

(٢) ابن بشر : المصدر السابق ص ١٤٨-١٤٩ ، أمين الريحاني : المصدر السابق ص ٥٧-٥٩ .

(٣) حسين ابن غنام : تاريخ نجد ص ١٨٠ (تحقيق د. ناصر الدين الأسد) الرياض ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م .

(٤) ابن بشر : المصدر السابق ص ١٣٤-١٥٥ .

الدعوة باعتناق الدعوة السلفية وأن يعترف للأمير عبد العزيز بالسلطة الروحية والدينية ، فلم يوافق سلطان مسقط بل هاجم (الحرق) الذي استعان بالقواسم حلفاء السعوديين فلم ينجح جيش سلطان عمان في طرد السعوديين ، واتفق الطرفان على وقف القتال على أن تبقى واحة البريمي تحت حكم (الحرق) القائد السعودي^(١) . وسيطر السعوديون على القواسم عام ١٧٩٩ م وفرضوا عليهم معاهدة ولاء واعتنقوا الدعوة السلفية وأصبحت رأس الخيمة مركزاً لهم ، كما نجحوا في السيطرة على الزبارة ، واحتل السعوديون البحرين عام ١٨٠١ على يد القائد ابراهيم بن عفيصان وذلك عندما استنجد آل خايفة حكام البحرين بالسعوديين لتحريرهم من حكم سلطان مسقط^(٢) .

وكان سالم الحرق أمير البريمي قد هاجم هاجر الغربية في عُمان ، وبذل محاولات كثيرة لكسب ود القبائل المجاورة الذين استهوتهم العقيدة السلفية ، وتفهموها بسهولة ، فأعلنوا ولاءهم للدولة السعودية ، وفرض الزكاة على تلك القبائل . وتمكن بالتالي من إجبار السلطان على الرضوخ والاستسلام ، وعقد معه هدنة لمدة ثلاث سنوات شريطة أن يدفع جزية سنوية إلى الدرعية مقدارها ١٢,٠٠٠ دولار « ماريا تريزا » وأن يسمح لأنصار الدعوة ودعاتها بنشر تعاليمهم الداعية إلى الإصلاح في مسقط ، وكاد الحرق أن يستولي على مسقط بعد ذلك لولا وفاة الأمير عبد العزيز التي أعاقته عن متابعة مهمته^(٣) .

موقف بريطانيا :

أثارت حركات التوسع السعودي على شاطئ الخليج العربي بريطانيا التي دخلت حلبة الصراع السياسي في الخليج ، إذ نظرت بريطانيا إلى قيام الدولة السعودية القائمة على التوحيد خطراً يهدد نفوذها في الخليج أكثر مما لو كان نابليون هو الغازي

(١) I.O. Home, Misc. Vol. 471. A.H. Bogle (Res. at Muscat) to Jonathan Duncan, 12 Mar. 1800.

(٢) ابن غنام : المصدر السابق ، ص ١٩٣-١٩٤ ، عبد الكريم غرايبة (الدكتور) : المصدر السابق ص ٣٦٢ .

(٣) I.O. Persian Gulf Res. Annual Administration Report (1887-88) PP. 26-27.

للمنطقة^(١) . وذلك لأن بريطانيا تخشى قيام وحدة إسلامية لأن ذلك يقضي على مصالحها في المنطقة وعلى أمانها التي تسعى لتحقيقها بالسيطرة على الخليج . ومن هنا بدأت بريطانيا تقاوم الدولة السعودية وتثير كلا من العثمانيين والفرس لمقاومة الدولة . وقد سبق لبريطانيا أن قاومت النفوذ الاستعماري في الخليج حتى تبقى على سيطرتها له .

ويذكر المستر ريموند اوشي في كتابه (ملوك الرمال في عُمان) عن أسباب تمسك إنجلترا بمنطقة الخليج حتى النصف الثاني من القرن العشرين فقال : « إنها شريان الحياة الرئيسي بالنسبة لنا ، وقد أكد اكتشاف البترول وتقدم الطيران هذه الحقيقة ، وسيظل الخليج يسيطر على استراتيجيتنا الدولية سنين طويلة ، فهو يتوسط جميع خطوطنا البحرية والجوية الرئيسية إلى الشرق ، ويحوي الموانئ والمراكز البحرية ومحطات الوقود اللازمة لأساطيلنا وبواخرنا وطائراتنا . والدولة التي تستولي على الخليج وعلى ساحل عمان تستطيع أن تحكم جزيرة العرب والعراق وإيران وإفريقيا ، وتستطيع أن تغلق قناة السويس ، وأن تقطع خطوط المواصلات الجوية والبحرية إلى الهند وإفريقيا . وإذا قامت في الخليج دولة معادية فإنها تستطيع أن تدق المسمار الأخير في نعش النفوذ البريطاني بجنوبي البحر المتوسط كله »^(٢) . وهذا يؤيد السياسة البريطانية في الخليج والتي أكدها بريطاني آخر وهو السير برسي كوكس عندما قال : « إن السيطرة على الخليج العربي تعادل تقريباً السيطرة على الشرق الأوسط »^(٣) .

فقد سبق لبريطانيا أن قاومت الاستعمار البرتغالي في الخليج بالتعاون مع هولندا وبلاد فارس التي منحت لكل من بريطانيا وهولندا امتيازات في بلادها وفي منطقة الخليج ، وذلك نظير مساعدة هاتين الدولتين لها في حربها ضد البرتغال^(٤) . وهكذا

(١) Kelly, J.B.: op. cit., P. 99.

(٢) سيد نوفل (الدكتور) : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة ص ٦٢-٦٣ القاهرة ١٩٧٢ .

(٣) خالد العربي : الخليج العربي في ماضيه وحاضره ص ٣٦-٣٧ ، بغداد ١٩٧٢ .

(٤) صلاح العقاد (الدكتور) : التيارات السياسية في الخليج ص ٢٤-٢٥ .

حلت التجارة الهولندية والانجليزية محل التجارة البرتغالية ، وقد أظهر الهولنديون مهارة فائقة في التجارة استطاعوا من خلالها أن يكسبوا ود الدولة الفارسية ، وبذلك استطاع الهولنديون الحصول على مكانة ممتازة في منطقة الخليج العربي استمرت حتى نهاية القرن السابع عشر^(١) . وأخذ الإنجليز في مقاومة الهولنديين مستخدمين نفوذهم السياسي لدى كل من الدولة العثمانية والدولة الفارسية ، ونجحت في التأثير على سير التجارة الهولندية ومحاربتها حتى اضطرت هولندا إلى الانسحاب من منطقة الخليج العربي سنة ١٧٦٥ وبذلك خلا الجو للإنجليز^(٢) .

وشهد القرن الثامن عشر منافسة واضحة بين بريطانيا وفرنسا في المحيط الهندي امتد أثره إلى منطقة الخليج العربي التي كانت بريطانيا تعتبره ضمن مناطق نفوذها ، فأنشأت بريطانيا شركة الهند الشرقية البريطانية لإرساء قواعدها في المنطقة — التي ما لبثت أن حولتها إلى هيئة سياسية كان لها دور كبير في توطيد النفوذ البريطاني في منطقة الخليج^(٣) .

حاولت فرنسا أن تمد نفوذها إلى الخليج العربي وذلك عن طريق إقامة علاقات تجارية مع العمانيين ، فقد تمكنت من عقد معاهدة صداقة وتجارة مع سلطان مسقط ، وقد اهتمت بريطانيا بظهور الفرنسيين في هذه المنطقة واعتبرته خطراً يهدد مصالحها بصورة مباشرة . وكان هدف فرنسا من الوصول إلى منطقة الخليج العربي هو العمل على محاولة غزو الهند واسترجاع المناطق التي تنازلت عنها لبريطانيا بمقتضى معاهدة الصلح التي وقعت بين البلدين في باريس سنة ١٧٦٣ في أعقاب حرب السنين السبع (١٧٥٦-١٧٦٣)^(٤) . وكانت خطة فرنسا تقوم على أساس استخدام طريق البحر الأحمر لسير الحملة ، وإقامة عدد من القواعد في الخليج العربي لدعم الحملة في

(١) محمود الداود (الدكتور) : الخليج العربي والعلاقات الدولية ج ١ ص ١٨ .

(٢) خالد العربي : المصدر السابق ص ٣٠-٣١ .

(٣) صلاح العقاد (الدكتور) : الاستعمار في الخليج الفارسي ، ص ٢١ ، القاهرة ١٩٥٦ .

(٤) المصدر السابق .

مهمتها . ولهذا عندما احتلت القوات الفرنسية مصر سنة ١٧٩٨ حاول نابليون بوناپرت الاتصال بسلطان مسقط لمد نفوذ فرنسا إلى الخليج حيث أرسل إليه - رسالة يعبر فيها عن صداقة فرنسا لمسقط ورغبتها في حماية جميع السفن العمانية التي تتاجر مع السويس^(١) .

أدركت بريطانيا خطورة علاقة فرنسا مع عمان ، فأ سرعت بعقد معاهدة مع سلطان عمان سنة ١٧٨٩ والتي بموجبها تم طرد الفرنسيين من عمان كما قطع سلطان مسقط علاقاته مع فرنسا وبذلك خلا الجو لبريطانيا ، وأكدت تلك المعاهدة بمعاهدة أخرى عام ١٨٠٠ تضمنت شروط السابقة وأضافت إليها شرطاً آخر هو تعيين مقيم بريطاني في عمان^(٢) .

وإذا كانت بريطانيا قد قاومت النفوذ الأوروبي بكافة أشكاله في منطقة الخليج ، فمما لا شك فيه أن نجاح السعوديين في منطقة الخليج قد أثار بريطانيا لأن مسقط وعمان مفتاح الخليج ، فلو نجح السعوديون في السيطرة عليها واحتلالها ، فإن ذلك سيؤدي إلى القضاء على النفوذ البريطاني في الخليج وحتى في الهند لأن الدولة السعودية كانت تهدف إلى توحيد المسلمين والوصول إلى الهند ومن هنا بدأت بريطانيا تقاوم الدولة .

وبالمقابل ، فقد أخذ القواسم أنصار الدعوة السلفية والدولة السعودية يقاومون بريطانيا ويستولون على السفن البريطانية يدفعهم في ذلك ، دافع ديني إلى جانب الدافع الاقتصادي . ولكن الدافع الديني هو الأهم لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم في حالة حرب وجهاد مع الكفار وأن عليهم الاستيلاء على سفنهم وبخاصة أن الاعداء كانوا قد حرموهم من مصدر رزقهم أثر نجاح حركة الكشف الجغرافية وبدء الاستعمار البرتغالي وتلاه الهولندي فالإنجليزي .

(١) ابراهيم الشريقي : أضواء على الخليج العربي ، ص ٢٠ ، جده ١٩٦٨ .

(٢) خالد العربي : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

الصراع بين بريطانيا والسعوديين وحلفائهم في الخليج :

كانت بريطانيا تحرص كل الحرص على عدم الدخول في حرب سافرة مع السعوديين خشية فشلها من ناحية ، وحقاً من تعرض طريقها البري التجاري بين البصرة وحلب للغارات السعودية من ناحية أخرى^(١) . فحاولت بريطانيا أن تفصل بين القواسم والسعوديين كما حاولت دعم سلطان مسقط وهو الوحيد الذي لم يخضع للحكم السعودي . فحاربت بريطانيا القواسم فقط خشية أن تتحول الحرب إلى حرب دينية قد تخسرها بريطانيا .

أخذ القواسم - أنصار السعوديين وحلفائهم - في الخليج يناضلون إيماناً بعقيدتهم من أجل السيطرة البحرية ، وقد زادتهم الدعوة السلفية إيماناً بحقهم الذي سبق أن مارسوه ضد السفن ، بل اعتبروا أنهم في حالة جهاد ديني ضد سفن الأعداء يجوز لهم الاستيلاء عليها . كما أخذوا في مقاومة سلطان مسقط الذي لم يكن من أنصار الدعوة والدولة السعودية ، بل كان من مؤيدي بريطانيا ، وذلك للخلاف المذهبي بينه وبين السعوديين من ناحية ولحب السلطة من ناحية أخرى .

استولى القواسم بمساعدة أعوانهم بني معن على قشم وهرمز على الساحل الفارسي ، وتقدموا نحو بندر عباس وسيطروا على مضيق هرمز الذي مكنهم من مهاجمة كل المراكب التي تبحر في الخليج عبوراً أو خروجاً . وفي عام ١٨٠٤ استولى القواسم على سفينتين إنجليزيتين هما شانون Shanon وتريمر Trimmer وملكهما صموئيل مانيسي S. Manisti المقيم في البصرة . وفي يناير ١٨٠٥ حاول أسطول للقواسم مكون من أربعين مركباً مهاجمة السفينة الحربية البريطانية مورينجتون Morington ذات الأربع والعشرين مدفعاً ، إلا أن مدافع السفينة المذكورة قد أحبطت محاولتهم^(٢) . ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يهاجم فيها القواسم

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن (الدكتور) : الدولة السعودية الأولى ، ص ٢٧٨ .

(٢) I.O. Bombay, Pol. Letters Recd. Vol. I, Gov. in. Council to Court of Directors 26 Feb. 1805.

سفينة تحمل العلم البريطاني فقد هاجموا سفينة شركة الهند الشرقية البريطانية سنة ١٧٧٨ ، وتمكنوا من أسرها وحجزها ، ولم يطلقوا سراحها إلا مقابل فدية مقدارها ٤٠٠٠ روبية ، واستمرت حملاتهم ضد السفن البريطانية في الفترة من ١٧٩٠م إلى ١٨٠٤ .^(١) ويعود ذلك إلى اعتناقهم للعقيدة السلفية التي زادتهم إيماناً بحقهم وشجاعة في تحدي سفن الأعداء وربما كان ذلك بأمر من الأمير سعود .

وفي مارس ١٨٠٥م صدرت الأوامر للمقيم البريطاني السابق في مسقط دافيد سيتون D. Seton بالعودة إلى مسقط على أثر وفاة سلطان مسقط ، والعمل على مساعدة أحد أولاده لاستلام السلطة، كما حثه الحاكم العام جورج بارلو G. Barlow بأن لا يزوج الحكومة البريطانية في عدا مع دولة مسقط ، وحذّر كذلك من تجنب العدوان بأي شكل والابتعاد عن النزاع مع السعوديين وكذلك مع الأتراك والإيرانيين. وفي الوقت نفسه صدرت أوامر مماثلة إلى ربانة السفن بنفس الغرض^(٢) .

وكان القواسم قد قتلوا سلطان مسقط عام (١٨٠٤) وهو في طريق عودته إلى مسقط ، فنشبت فتنة بين ولديه سالم وسعيد وعمه سعيد الذي بقي إماماً رمزياً في رستاق . واستنجد ولداه بشاه إيران ضد السعوديين ولكن الحملة الإيرانية فشلت في إبعاد الخطر السعودي . وسيطر على البلاد بمساعدة السعوديين بدر بن سيف الذي حكم باسم سعيد بن سلطان^(٣) .

وقد بعث الأمير سعود برسالة إلى بدر سلطان مسقط جاء فيها : « من غير شك ، أنك ستسارع إلى شن حرب مقدسة في الهند ، والتي لن تحارب فيها من أجلي ، ولكن في سبيل الله ، وعليك أن تكون مطيعاً لله »^(٤) . وقد اطلع بدر المقيم البريطاني

(١) Bombay Selections Vol. 24 P 302, F. Warden "Historical Sketch of the Joasmee..".

(٢) I.O. Bombay Pol. letters, Recd. Vol. I, Gov. in Council to Court of Directprs, 26 Feb. 1805.

(٣) ابن بشر : المصدر السابق ص ١٣١ .

Bombay Selections. Vol. 24 P, 430-431.

(٤)

في مسقط سيتون على الرسالة وأبلغه عن رغبته في الاستقلال عن السعوديين ، فأرسل بدر رسالة إلى المستر جوناثان دنكن J. Duncan يرجوه مساعدته ، وأيده سيتون مكرراً تحذيره للمسؤولين البريطانيين في الهند ، بأن السعوديين إذا سيطروا على مسقط ، فستصبح مركزاً خطيراً يهدد تجارة الهند الغربية ، وأيد سيتون أقواله برسالة الأمير سعود إلى بدر^(١) . ولكن بدر لم يلبث أن قتل بعد سنة على يد عمه سعيد .

ومهما يكن من أمر ، فإن رسالة الأمير سعود إلى بدر توضح بشكل لا يقبل الجدل صدق وعزيمة الدولة السعودية على توحيد المسلمين وعلى محاربة الكفر ومقاومة المستعمر . كما أن الرسالة قد أثارت بريطانيا التي عملت على محاربة الدولة السعودية وعلى تثبيت نفوذها في عمان خاصة وأنها تعتبر عمان مدخلاً للخليج فمن يسيطر عليها سيطر على الخليج وربما زحف إلى الهند .

ورغم انقسام إمارة مسقط بين قيس بن أحمد صاحب (صحار) وسعيد بن سلطان صاحب (مسقط) فإنهما تحالفا ضد السعوديين ، وانتصر عليهما جيش سعودي في عام ١٨٠٨م بقيادة سلطان بن صقر بن راشد صاحب رأس الخيمة ، وسقط قيس قتيلاً فخلفه في (صحار) ابنه عزان . واضطر صاحباً صحار ومسقط إلى مصالحة السعوديين^(٢) .

وقد اعترفت بريطانيا بسلطان مسقط سعيد عندما وافق الأخير على أن تكون مسقط حيادية في الصراع الأنجلو-فرنسي . وخلال الأشهر القليلة التي تلت ذلك ، كان النفوذ البريطاني في مسقط قليلاً ، وفي الوقت نفسه كان بيت المقيم البريطاني خالياً كاجراء اقتصادي وللتقليل من مخاطرة التدخل في شؤون مسقط . وقد غيرت السلطات البريطانية رأيها مع تغير خطر الحرب مع فرنسا بتحالف روسيا وتركيا مع نابليون ، فأعادت فتح بيت المقيم في مسقط ، وعاد (سيتون) لاستلام عمله ،

Bombay Selections Vol. 24, P. 430-431.

(١)

(٢) ابن بشر : المصدر السابق ص ١٤١-١٥٥ .

وحددت صلاحياته بمراقبة أية تحركات من قبل الفرنسيين لإقامة قاعدة في الخليج ، وفي نفس الوقت يمكن الاهتمام بما يجري في عمان^(١) .

وأخذت دول أوروبا تفكر في الإفادة من وضع الدولة السعودية في مجال الصراع الدولي الناشب في ذلك الوقت بين فرنسا وإنجلترا . وكانت سياسة نابليون تقوم في محاربة إنجلترا على تأليب كافة القوى المحلية في الشرق العربي وجنوب شرق آسيا على إنجلترا . ولذا أرسلت فرنسا عدة بعثات منها بعثة سباستياني إلى مصر وسوريا عام ١٨٠٢ ، وبعثة الجنرال دنكين إلى الهند عام ١٨٠٣ ، للاتصال بتيبو صاحب التأثير في جنوب الهند ضد النفوذ البريطاني . وهذا الاتجاه إلى جانب اتفاقية نابليون مع القيصر اسكندر في تلست عام ١٨٠٧م على تقسيم الإمبراطورية العثمانية هو الذي دفع نابليون إلى إيفاد بعثة دى لاسكارس « De Lascaris » إلى السعوديين . وعقد لاسكارس عدة اجتماعات سرية مع السعوديين . واقترح المبعوث الفرنسي على الأمير السعودي أن يعاون فرنسا حول تقسيم الإمبراطورية العثمانية من ناحية ، وعلى معاونة الوحدات الفرنسية التي قد تتمكن فرنسا من إرسالها إلى الهند من ناحية أخرى^(٢) .

وتضمنت عروض لاسكارس لسعود أنه يستطيع الاعتماد على فرنسا إذا ما غزا سوريا أو العراق . وعلم ممثلوا الحكومة البريطانية في جدة والسويس وعمان بهذه المفاوضات ، وأبلغوا أنباءها إلى حكومتهم ، فأسرعت الحكومة البريطانية بإيفاد مبعوثين إلى الدرعية ، بل لقد ذهب لورد كاسلراي وزير الخارجية إلى حد إغراء سعود بالاعتراف باستقلاله دولياً ، إذا امتنع عن غزو ممتلكات الدولة العثمانية والتحالف مع فرنسا . ولكن سعود أراد أن يستفيد من المشروع الفرنسي الذي أتاح له الفرصة للقيام بغزوته إلى سوريا والعراق أواخر عام ١٨١٢ . وكان من الممكن أن

Bombay Selections, Vol. 24. P. 430-1.

(١)

Benoist-Méchin, J: op. cit., P. 51-52.

(٢)

ينتهي هذا الغزو إلى شيء لولا أن فرنسا كانت قد نكبت في غزوها لروسيا عام ١٨١٢ ، فلم يكن في إمكانها أن تقدم مساعدة للسعودية ^(١) . ومن المشكوك فيه وصول البعثة الفرنسية إلى الدرعية لعدم ذكر المصادر النجدية والانجليزية لذلك ^(٢) .

واستمر الصراع قائماً بين الانجليز والسعوديين حول عمان ، فسأت علاقة سلطان مسقط سعيد بن سلطان مع عزان بن قيس الذي استثناه من حكم (صحار) بدلاً من والده قيس ، كما سأت مع محمد بن ناصر من بني جابر الذي غادر مسقط في ثورة غضب ، وبدأ بمراسلة الأمير سعود الذي أظهر تجاوباً فورياً لاقتراحاته خاصة وأن الأمير كانت لديه الفكرة بإخضاع جنوب شرقي الجزيرة العربية برمته ^(٣) . وأرسل سعود مطلق المطيري إلى واحة البريمي الذي أنشأ فيها قلعة للسيطرة على الظاهرية أيضاً . وتحالف مع أقوى قادة عشائر شمالي عمان ، وهم محمد بن ناصر من بني غفير ، ومحمد بن ناصر من بني جابر وعزان بن قيس من صحار . وقد تم تعيين كل من هؤلاء أميراً أو سيداً للأرض ومسئولاً أمام أمير الدرعية عن طريق مطلق ^(٤) . واتجه مطلق إلى إمارات ساحل عمان ، فأزاح سلطان بن صقر شيخ رأس الخيمة من رئاسة القواسم في ربيع عام ١٨٠٨ وذلك لعدم إخلاصه وولائه التام إزاء حكام الدرعية ، وفي نهاية العام أرسله سجيناً إلى الدرعية ، وعين مكانه عمه حسين بن علي نائباً للسعوديين على منطقة القواسم ، ورفع الزكاة السنوية التي تدفع للدرعية من أربعة آلاف إلى إثني عشر ألف ريال ، كما صدرت الأوامر إلى حسين بن علي بأن يضع كل سفينة يمكنه الاستيلاء عليها في البحر كي تبحر باسم دين الإصلاح ضد المنشقين والمرتدين والكفار على حد سواء وتحويل خمس الغنائم إلى الدرعية ^(٥) .

Ibid.

(١)

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن (الدكتور) : الدولة السعودية الأولى ، ص ٢٨٩ .

(٣) ابن بشر : المصدر السابق ص ١٥٥-١٦٠ .

(٤) ابن بشر : المصدر السابق ص ١٦٠-١٦٣ .

Bombay Selections, Vol. 24. P. 432-5.

(٥)

استأنف القواسم نشاطهم البحري ضد الإنجليز بعد أن صدرت الأوامر إليهم من حكام الدرعية ، فأعدوا أسطولاً بحرياً كبيراً يقدر بـ ٦٣ مركباً كبيراً و ٨١٠ مركباً صغيراً ، وتبلغ حمولتها ما بين ١٨ إلى ٢٥ ألفاً من المقاتلين الأشداء . وقام القواسم بمهاجمة السفينة فيوري Fury والتي كانت في طريقها من البصرة إلى بومبي وتحمل بريد الشركة ، هوجمت من قبل مركبين شرعيين إلا أنهما صدا بواسطة مدافع السفينة ، وبعدها بثلاثة أسابيع اصطدمت السفينة مينيرفا Minerva بأسطول من سفن القواسم مؤلف من خمس وخمسين سفينة ، واستولوا عليها وقتلوا معظم ركبها وبحارتها على ظهر الباخرة ، ثم اقتيدت السفينة إلى رأس الخيمة وأفرغت حمولتها ومعداتاها ، وأطلق سراح الأسرى (١) .

أخذ القواسم في الابحار في مجموعات تتكون من ١٥-٢٠ مركباً ، وكل مجموعة يقودها نائب أو ملازم مسؤول تجاه حسين بن علي نائب الحاكم السعودي . وكانت مراكز القواسم تتغلب بصفة مستمرة على سفن الأعداء وذلك برغم قلة معلوماتهم عن الأسلحة التقليدية . وعندما يستولون على مركب يصعدون عليها ويقضون على ركبها وربابنتها قضاء تاماً حتى ويذبحونهم على حد قول أحد ضباط البحرية الانجليز : « لا بد وأن أعترف بأن الشعب الطيب الذي ليس من طبعه القسوة ، أجد نفسي مندهشاً عندما أراه يقوم بذبح الأسرى ، إذ كانوا يقدمون على هذا الأمر باحتفال مرعب ومخيف ، فيعطى فعلهم مظهر شعائر دينية مترتبة ، علماً بأنه لا يوجد مبرر لذلك ما عدا التعصب للعقيدة التي يؤمنون بها . وبعد أن يتم الاستيلاء على السفينة يجري تطهيرها بالماء والعطور ، ثم يقاد البحارة للأمام كل على حدة ، وتوضع رؤوسهم على طرف المركب ، فيذبحون ويطلقون صرخة الحرب في المعركة . الله أكبر ! » (٢) .

ولقد اتهم الانجائز القواسم بأنهم قراصنة ولا أدري أصحاب البلاد المجاهد

Kelly, J.B.: op. cit., P. 111.

(١)

I.O. Bombay Pol. and Sec. Proc., Range 383, Vol. 7 Pol Consuln of 8 Sep.

(٢)

1809, Borah Alimunjee to Seton.

المدافع عن حقه هو الذي يعتبر قرصاناً أم الأجنبي المستعمر ؟ ولربما بالغ الضابط الانجليزي في تصويره وإن صح قوله فإن المسلمين كانوا في حالة حرب ضد الكفار المعتدين .

واستمر القواسم في نشاطهم البحري ، فوضعوا كل ثقلهم خلف مطلق المطيري لتشديد قبضته على عمان والقضاء على المرتدين . ومع قرب انتهاء عام ١٨٠٨ م ، سيطر مطلق المطيري وأعوانه على أكثر الموانئ على الشاطئ الشمالي بما في ذلك خور فكان والفجيرة وخور كلبا ومن هذه الخلجان الصغيرة كان القواسم يشنون هجومهم على التجارة البحرية التي تمر من خليج عمان ، كما كان مطلق المطيري يقوم بغارات مكثفة وعنيفة ضد سلطان مسقط الذي اضطر إلى عقد صلح مع مطلق المطيري انقاداً لبلاده المثخنة بالجراح^(١) .

وفي خريف عام ١٨٠٨ م ، استؤنفت حملات الجهاد ضد السفن البريطانية ، فقام القواسم بهجوم جريء وقوي على سفينة الشركة الحربية سيلف Sylph ومزودة بشمان مدافع تابعة لبحرية بومبي ، واقتادوا السفينة وضموها إلى أسطولهم بعد أن قضوا على ركبائها ، ولم تستطع السفن البريطانية انقاذها وذلك لأن الحكومة البريطانية قد أصدرت أوامرها لقباطنة السفن بعدم إطلاق النار على سفن القواسم أو إثارتهن وذلك لمعرفة بمدى علاقتهم بالسعوديين وبالمدافع الذي يحاربون من أجله . يضاف إلى ذلك أن بريطانيا لا تستطيع معاداة السعوديين وليست قادرة على إرسال حملة إلى الجزيرة العربية ، والأهم من هذا كله أنه لم يكن لدى بحرية بومبي أسطول كبير يمكنها من القضاء على سفن القواسم^(٢) . والحقيقة التي أن بريطانيا تخشى الاصطدام مع الدولة السعودية القائمة على التوحيد والتي عمت عقيدتها معظم أجزاء العالم العربي والإسلامي خشية أن تتحول الحرب إلى حرب دينية .

I.O. Bombay Pol. and Sec. Proc. Range 382, Vol. 55 Pol. Consuln. of 10 Dec. 1808, Kishandas to Duncan. (١)

I.O. Bombay Pol. and Sec. Proc. Range 382, Vol. 53, Pol. Consuln. of 11 Nov. 1808 Graham to William Morney. (٢)

تابع القواسم هجومهم على السفن البريطانية ، فاتجهوا بأسطولهم إلى الساحل الغربي للهند وحاربوا السفن الانجليزية واستولوا على عشرين مركباً تجارياً ، الأمر الذي أدى إلى أن يرفع التجار الهنود عريضة إلى الحاكم الانجليزي يطالبونه فيها بالتدخل لمنع الاعتداءات عليهم ، وإلا فإنهم سيتركون التجارة إذا ما استمر القواسم في مضايقتهم لهم . فأصدر دونكن Duncan أوامره بإعداد حملة قوية وكبيرة للقضاء على قوة القواسم البحرية . وقد كان الموحدون السعوديون قد سيطروا على مسقط وعمان والساحل البحري والإمارات الواقعة عليه . وطلب حسين بن علي - نائب الأمير السعودي في رأس الخيمة - من حكومة بومبي أن تدفع الجزية كي يسمح للسفن البريطانية بعبور الخليج ، وفي نفس الوقت طلب الأمير سعود من سلطان مسقط أن ينضم إلى القواسم في هجوم على البصرة والاستيلاء على السفن التجارية الهندية^(١) .

وفي ١٤ سبتمبر ١٨٠٩ م ، أبحرت الحملة البريطانية من الهند وكانت مكونة من سفن حربية ضخمة محملة بالمدافع ، وكانت الأفواج العسكرية تصل إلى حوالي ١٥٠٠ ما بين ضابط وجندي . ووصلت الحملة إلى مسقط . وفي ١١ نوفمبر توجهت كافة الحملة إلى رأس الخيمة ، وأصدر قائد الحملة وينرايت « Wain Wright » أوامره بضرب مدينة رأس الخيمة بالمدفعية ، واستمر القصف عدة أيام دون جدوى إذ لم يصب التحصينات إلا ببعض الأضرار . وقد دافع عرب القواسم دفاع الأبطال عن المدينة وحولوا كل بيت إلى قلعة ، وكانت المعركة ضارية ، واضطر بعدها القواسم إلى إخلاء رأس الخيمة ، وأحرق الإنجليز جميع المراكب من أي حجم ، كما دمروا المخازن البحرية وأطلقوا سراح بعض السجناء الهنود . واستطاع الأسطول البريطاني بعد ذلك - بمساعدة سلطان عمان سعيد - من الاستيلاء على جزيرة قشم وعلى خور فكان وكلبا التي تخضع لسيطرة القواسم^(٢) .

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن (الدكتور) : المصدر السابق ص ٢٧٦ .

Kelly, J.B.: op. cit., P. 114-115.

I.O. Bombay Pol. and Sec. Proc. Range 383, vol. 9. Pol. Consuln, 8 Sep (٢) 1809. Memo by Duncan.

وحاول سلطان مسقط تساعده القوات البريطانية باحتلال مدخل الخليج حيث أقام السعوديون قلعة حصينة وحولها قلاع أخرى صغيرة . وتمكن الأعداء من الاستيلاء عليها بعد مقاومة عنيفة وشرسة قام بها السعوديون حتى آخر رجل منهم^(١) . وبعد رحيل الأسطول البريطاني تعرض سلطان مسقط لهجوم من مطلق المطيري أجبره على العودة إلى مسقط وعلى دفع جزية سنوية للأمير السعودي ، كما استرد السعوديون ميناء شناص الذي استولت عليه القوات الانجليزية^(٢) . وهكذا نجد التعاون بين السعوديين والقواسم في محاربة الإنجليز ، كما أن النجديين يهرعون دائماً لمساندة القواسم إذا ما تعرضوا للشدة والضغط .

وانضم رحمه بن جابر زعيم قبيلة الجلاهمة إلى السعوديين ، وقاد حرباً انتقامية ضد آل خليفة في البحرين وآل الصباح في الكويت في نفس الوقت الذي طالبهم فيه الأمير سعود بالانضمام إلى القواسم لإعلان الحرب في البحر والمهجوم على البصرة ، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك . وحينئذ أصر سعود على وضعهم تحت السيطرة فعين عبدالله ابن عفيصان وكيلاً عنه على قطر والبحرين ، وساعد رحمه بأسطوله عبدالله بن عفيصان فأجبروا آل خليفة على الاستسلام في فبراير ١٨١٠ م . وقررت بريطانيا القضاء على رحمه وأسطوله الذي كان يتعرض للسفن الكويتية فقط ولم يهاجم السفن البريطانية . وقبل أن يقرر البريطانيون البدء بالهجوم على رحمه ، فقد طلبوا من الأمير سعود أن يكبح جماح رحمه وأتباعه والآخرين من الاعتداء على السفن البريطانية وغيرها^(٣) .

بعث الأمير سعود برسالة إلى المستر هانكي سميث « Hankey Smith » قائد الأسطول البريطاني رداً على رسالته أوضح فيها : « إنني مستعد للصفح عنكم

I.O. Bombay Pol. and Sec. Proc. Range 383, Vol. 14. Consuln. 27 Jan. 1810, (١)
Smith to Gov.

(٢) صلاح العقاد (الدكتور) : التيارات السياسية في الخليج ص ١١٠ .

Bombay Selections, Vol. 24. P. 308f (٣)

ما دمتم قد طلبتم السلام » . وأضاف بأنه سيوقف عملية مطاردة السفن البريطانية من جميع أتباعه ، كما أنه يرحب بالتجار البريطانيين في موانئه مقابل أن يسمح لرعاياه بالتزول في الموانئ البريطانية والهندية ، ويأمل أن تكف الحكومة البريطانية عن القيام بأعمال عدوانية على شواطئه ومن التدخل بخلافاته مع حيرانه . وختم سعود رسالته بعدم جدوى الحرب ^(١) . ويبدو أن الإشاعات التي سرت حول نية غزو الدولة السعودية من قبل محمد علي والي مصر قد جعلت الأمير يوقف عملية مطاردة السفن البريطانية في الخليج حتى يستعد لمواجهة التحرك المصري .

وتحت ضغط الأمير سعود الذي استاء من مساندة بريطانيا للسلطان مسقط ، فقد تخلت الحكومة البريطانية عن سلطان مسقط ونصحته بقبول شروط الصلح مع السعوديين . فاتجه سلطان مسقط إلى فارس يطلب المساعدة ، وعاد ومعه جنود مرتزقة ، وطلب الأمير سعود من الفرس بأن لا يقدموا مثل هذه المساعدة لمسقط في المستقبل ، إذ أن سعود كان يخشى من أن يقوم الفرس بعدوان على شرقي الجزيرة العربية أثناء النزاع السعودي المصري المحتمل في الحجاز ، ولذا فإن سعود كان راغباً في أن يحصل على ضمان من حاكم فارس بعدم التدخل في شؤون الدولة السعودية . وقد نجح سعود في الحصول على ضمانات وتأكيدات من حاكم فارس بهذا الخصوص حملها إليه مبعوثه إبراهيم عبد الكريم الذي أرسله إلى فارس . وقد زار المبعوث السعودي إبراهيم المقيم البريطاني في بو شهر عله يستكشف نيات السلطات البريطانية حول شن عمليات حربية جديدة على شاطئ الجزيرة العربية فأكدوا له بأنهم لن يقدموا على شيء من هذا . ولكن سلطان مسقط ظل يثير القلاقل إبان حرب السعوديين مع محمد علي ، فحاربه مطلق المطيري وفرض عليه الجزية ، غير أن مطلق قد قتل غدرًا في عام ١٨١٣ م ، وحاول الأمير سعود عقد صلح مع سلطان مسقط حتى يتفرغ لمواجهة عدوان محمد علي والي مصر على الحجاز ^(٢) .

I.O. Bengal Political Proceedings, Range 119, Vol. 8, Consulu, of 7 July 1810, (١)
Saud ibn Abdul Aziz to Hankey Smith.

Kelly, J.B.: op. cit., P. 126-128.

(٢)

ويبدو أن الأمير سعود كان يود من رسائله ومبعوثيه إلى فارس وبريطانيا إعلان هدنة مؤقتة حتى يتفرغ لمحاربة محمد علي .

ورغم ذلك ، فقد استمرت السفن العربية في التجوال على الشاطئ الغربي للهند ، واستولت على عدة سفن ، فطلب الأمير سعود - بإيعاز من حكومة بومي - من حسن ابن رحمه الذي حل محل حسين بن علي حاكم رأس الخيمة بأن يعمل على إبعاد رجال قبائله عن شواطئ الهند ، كما طلب أمير الدرعية الجديد - عبد الله بن سعود الذي خلف والده سعود المتوفي عام ١٨١٤ - من حسن بن رحمه أيضاً عدم إغضاب البريطانيين ، وفي نفس الوقت ، أوضح الأمير في كتاب بعثه إلى المقيم البريطاني في بوشهر بأن هجمات القواسم على السفن غير البريطانية سوف تستمر ، وأضاف قائلاً : « دعني أعرف رعاياكم وعلاماتهم المميزة ، إذ أن سفن المحمدين تجوب البحر باستمرار » . وتعهد حسن بن رحمه خطأً للمقيم البريطاني ولیم بروس « William Bruce » بأنه لن يهاجم السفن البريطانية ، ووافقت حكومة بومي على هذا القرار^(١) .

وأياً ما كان الأمر ، فقد استمرت حملات سفن القواسم واستمر تجوالها على الشواطئ الهندية للاستيلاء على السفن غير البريطانية . وقد رفضت حكومة بومي طلباً من تجار الهند بحمايتهم ، ويبدو أن حكومة بومي قد اشترت الحصانة ضد الهجمات على السفن التجارية البريطانية بالاعتراف الضمني بحق القواسم بالاستيلاء على السفن التجارية للدول الأخرى . وقد استولى رحمه بن جابر على سفينة تركية كانت تحمل تصريحاً صادراً عن المقيم في البصرة . وبعد ذلك ، كتب الأمير عبد الله رسالة إلى بروس المقيم البريطاني في بوشهر محتجاً بشدة على إصدار تصاريح لسفن غير بريطانية وجاء في رسالته : « بالنسبة للأتراك فإنهم أعدائي ويودون

(١) Bombay Gov. Selections of Bombay Gov. Précis of Gulf Corresp., 1810- 1853, P. 56, Abdullah ibn Saud to William Bruce.

زرع بذور الشقاق بيننا ، إننا سنحترم كل شخص من رعاياكم ، ولن نسمح لرعايانا بالتحرش بهم من قريب أو بعيد ، إلا أنه يجب عليكم أن لا تخلطوا أعدائي مع شعبكم أو أن تمنحهم تصاريح »^(١) .

وفي عام ١٨١٦م ، بدأ القواسم بمهاجمة السفن الأوروبية في الخليج فهاجموا السفن البريطانية والأمريكية والفرنسية ، وأسروا ثلاث سفن محملة ترفع العلم البريطاني ، وقتلوا جميع ركبها ، واستولوا على حمولتها التي تقدر بمليون جنيه استرليني ، فأندرت بريطانيا حسن بن رحمه بإعادة حمولة السفن ومعاقبة المسؤولين عن قتل بحارتها . واحتج بروس لدى حسن بن رحمه لنقضه للتعهدات ، فأكد حسن بأن التعهدات لا تنطبق على الهنود ، وإنما تنطبق على البريطانيين ، فأرسلت بريطانيا حملة إلى رأس الخيمة وفشلت الحملة في تحقيق أهدافها . وفي ديسمبر ١٨١٦م استولت سفن القواسم على اثني عشر مركباً على شواطئ الهند الغربية ، وفي فبراير ١٨١٧م استولى القواسم أيضاً على سفينة حربية من بحرية بومبي وتم قتل سبعة عشر من ملاحها وأسر ثمانية منهم ونقلهم إلى رأس الخيمة . ولذا ، قررت بريطانيا الأخذ بنظام القوافل بالنسبة للسفن المبحرة إلى الخليج ، واتخذت حكومة بومبي قراراً بمهاجمة وأسر وتدمير أية سفينة تابعة للقواسم يقابلونها في الخليج^(٢) .

وقد انزعج الأمير عبدالله بن سعود من محاولة ضرب رأس الخيمة بالمدفعية ، فأرسل الأمير رسالة إلى وليم بروس W. Bruce المقيم البريطاني في بوشهر في فبراير ١٨١٧م ، كرر فيها تأكيدات السابقة بعدم التعرض للسفن البريطانية ، وأضاف محذراً بروس بأن حملات السفن العربية ستستمر بكامل قوتها . وقال أيضاً : « . . . أما بالنسبة لغير البريطانيين فإنني أتحذر من كافة الالتزامات . فكيف تفترض

Ibid.

(١)

Kelly, J.B.: op. cit., P. 134-5.

(٢)

بأننا سنعيد ما استولينا عليه من أعدائنا ؟ إنني أعلن نفسي مسؤولاً عن سلوك جميع المسلمين تجاه الرعايا البريطانيين . إن شعوب مصر وجده واليمن وشحر والمكلا ومسقط والبصرة والعراق والرعايا الإيرانيين التابعين لسعيد بن سلطان ، كل هؤلاء أعداؤنا ، وبعون الله سنقضي عليهم أينما نجدهم ونصادر ممتلكاتهم حسب أوامر المولى العلي القدير »^(١) .

انتظر الانجليز مهاجمة القواسم حتى تحين الفرصة لمثل هذا الهجوم الذي انتظروه وهو مهاجمة محمد علي الدولة السعودية في خريف عام ١٨١٦ . وكانت رحلات سفن القواسم مستمرة حول شواطئ الهند وفي الخليج فيما بين عامي ١٨١٧ و١٨١٨ . وحاولت السفن البريطانية التحرش بسفن القواسم ولكن دون جدوى ، فقد كانت سفن القواسم خفيفة الحركة وقادرة على الافلات وانتهت هذه الحرب بسقوط الدولة السعودية ، إذ أن بريطانيا أعدت حملة كبيرة انضم إليها سلطان مسقط واحتلت رأس الخيمة في ٩ ديسمبر ١٨١٩ وأحرقت أسطول القواسم . وأجبر حسن بن رحمه شيخ رأس الخيمة والشيخ شخبوط حاكم دبي والشيخ سلطان على توقيع معاهدة في ٨ يناير ١٨٢٠ ، ووقعها معه شيوخ الساحل وشيخ البحرين وتعهدوا بموجها بوقف نشاطهم البحري - وقضى بذلك على قوة العرب البحرية في مياه الخليج^(٢) .

وكانت الدولة العثمانية قد كلفت محمد علي والي مصر بالقضاء على الدولة السعودية بعد أن عجزت جيوش الدولة عن كسر شوكة السعوديين وإخضاعهم ، وكلفت الدولة العثمانية محمد علي بتصفية الحرمين الشريفين واستخلاصهما من أيدي السعوديين ، واسترداد سلطة الدولة المشرفة على الزوال في شبه الجزيرة العربية^(٣)

I.O. Bombay Sec. Proc., Vol. 14. Consuln. 21 July 1819. Abdullah ibn Saud (١) to William Bruce.

Wilson, Arnold: The Persian Gulf, PP. 205-8. (٢)

(٣) السيد رجب حراز (الدكتور) : المصدر السابق ص ١٣٣ .

فأرسل محمد علي حملة في عام ١٨١١م بقيادة ابنه طوسون إلى الحجاز يرافقه ضابط بريطاني ، ثم اتبعها عام ١٨١٣م حملة أخرى تولى هو قيادتها ، وأخيراً أرسل عام ١٨١٦م حملة ثالثة بقيادة ابنه ابراهيم أقدر أبنائه وأطهرهم بأساً . وزحفت الحملة من الحجاز صوب الدرعية واستولت في طريقها على عنيزة وبريدة وشقرا ، ثم ضربت الحصار على الدرعية ، وكان حصاراً طويلاً استمر من ٦ أبريل إلى ٩ سبتمبر عام ١٨١٨م ، وانتهى باستسلام الأمير عبدالله بن سعود ودخول ابراهيم باشا الدرعية^(١) . ولم يستطع ابراهيم باشا تأسيس ادارة جديدة في نجد ، وتركها فريسة الانقسامات العديدة والفتن ، وعادت العائلات المالكة القديمة ، إلى البلاد التي أجلاهم السعوديون عنها . وغدت أوضاع نجد شبيهة بما كانت عليه قبل قيام الدعوة السلفية وأكثر اضطراباً ، ولذلك سميت هذه الفترة بفترة الاضطرابات^(٢) .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ، لماذا لم تقم الدولة العثمانية بنفسها بالقضاء على الدولة السعودية بعد أن فشلت حملاتها عن طريق العراق ؟ والجواب على ذلك بأن هناك عدة عوامل مختلفة منعت الدولة العثمانية من قيامها بذلك منها الحرب الروسية التركية ، والثورات الداخلية ، وفساد الحكام واضطراب الأوضاع الداخلية ، وازدياد نفوذ الانكشارية والأزمة المالية^(٣) . يضاف إلى ذلك رغبة الدولة العثمانية في التخلص من محمد علي الذي كانت تخشى اتساع نفوذه . فتكون بذلك — لو نجح محمد علي — قد ضربت عصفورين بحجر واحد ، فتخلصت من الدولة السعودية ، وأضعفت محمد علي إن لم تقض عليه ، وإلا فستكسب واحدة منها^(٤) . ولربما كانت الدولة العثمانية تخشى من الدولة السعودية التي عمت دعوتها مناطق كثيرة من العالم العربي والإسلامي ، فلو دخلت في حرب معها فلربما تخسر الحرب

(١) أمين الريحاني : المصدر السابق ص ٦٠-٧٧ ، فؤاد حمزة : المصدر السابق ص ٢٥٤-٣٣٤ .

(٢) فؤاد حمزة : المصدر السابق ص ٢٣٥-٢٣٦ ، أمين الريحاني : المصدر السابق ص ٧٧-٧٨ .

(٣) Kelly, J.B.: op. cit., p. 128.

(٤) فؤاد حمزة : المصدر السابق ص ٣٣٣ .

بسبب سوء أوضاع الدولة الداخلية . ويؤكد ذلك تقدم محمد علي وإحرازه انتصارات كبيرة ضد الدولة العثمانية وكاد أن يستولي على الآستانة لولا تدخل الدول الأوروبية .

أما بالنسبة لبريطانيا فقد أعلنت عن فرحتها بسقوط الدولة السعودية وتم لها ما أرادته من إحكام سيطرتها على منطقة الخليج العربي — وربطت حكاهم بمعاهدات جائزة . كما أطلقت على ساحل عمان الساحل المهادن . وكانت بريطانيا تقاوم قيام أي دولة تعمل على توحيد العالم العربي والإسلامي ، لأن في ذلك تهديداً لمصالحها واستراتيجيتها في المنطقة ، فكما قاومت الدولة السعودية ، فقد قاومت بعد ذلك محمد علي عندما حاول أن يكون أمبراطورية عربية .

ورغم أن السلطات البريطانية سواء في الهند أو خارجها ، أبدت سرورها لسقوط الدولة السعودية الأولى ، وأفصحت عن كراهيتها المكبوتة ضد آل سعود ، إلا أنها في نفس الوقت خشيت أن تحل قوة محمد علي مكانها ، في توحيد بلدان المنطقة وإقامة دولة قوية فيها ، تشكل خطراً جديداً عليها وعلى حليفها سلطان مسقط ، ولذا فإن سياستها إزاء القوة الجديدة أصبحت تقوم على أساسين ، يهدفان إلى الحيلولة دون قيام وحدة سياسية قوية على الخليج ^(١) . والوقوف في وجه توسع محمد علي وكان الأساسان هما :

أولاً : محاولة إقحام إبراهيم باشا في مطاردة السعوديين وحلفائهم القواسم بقصد التخلص النهائي منهم ^(٢) ، وإنهاك قوات محمد علي ، في عمليات حربية برية وبحرية قد لا تحمد عقباها بالنسبة لهذه القوات .

ثانياً — التعرف على الأهداف التي يرمي إليها إبراهيم باشا في حروبه وغزواته القادمة نحو الخليج والتحالف معه ، وقد كلف بهذه المهمة الكابتن سادلر Sadlier الذي كلف في نفس الوقت بتهنئة إبراهيم باشا على نجاحه في القضاء على الدولة

(١) أحمد عزت عبد الكريم (الدكتور) : مقدمة الاستعمار في الخليج الفارسي ، ص ٩ ، القاهرة ١٩٥٦ .

(٢) جمال زكريا (الدكتور) : دولة البوسعيد ، ص ١٦٩ ، القاهرة ١٩٦٨ .

السعودية^(١) . ولكن سادلر لم يستطع أن يحقق أهدافه ، ولم يحصل من ابراهيم باشا على موافقته على المقترحات الانجليزية ، لأن تعليمات والده إليه كانت تحذره من الاتصال بالانجليز في ذلك الوقت^(٢) .

وعبر الإنجليز عن فرحتهم بسقوط الدولة السعودية الأولى فجاء في تقرير المستر فرنسيس واردن الذي قدمه لحكومة الهند سنة ١٣٣٤هـ / ١٨١٩ م عن الدولة السعودية الأولى « هكذا قامت وسقطت ، ويؤمل ألا تقوم مرة ثانية تلك الجماعة الشاذة التي شجعت وحثت الغارات البحرية في الخليج وبحار الهند (المحيط الهندي) بدرجة من النجاح ، وبجراحة ووحشية لا تفوقها غير بشاعة الجزائريين في أوروبا »^(٣) .

وجدير بالذكر أن بريطانيا لم تكن تخشى الدولة العثمانية مطلقاً فكانت متمسكة بمبدأ المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية ، وهي (أي بريطانيا) تدرك أن الدولة العثمانية آخذة في الانحطاط والتدهور ، وأنها لا تشكل خطراً على المصالح البريطانية في منطقة الخليج ، بدليل أن بريطانيا سيطرت على منطقة الخليج دون أن تحرك الدولة العثمانية ساكناً . وعلى النقيض من ذلك فإن بريطانيا كانت تخشى كما أشرنا قيام دولة فنية ناشئة كالدولة السعودية الأولى القائمة على أساس التوحيد ، وذلك لأن في وجودها خطر على المصالح البريطانية في المنطقة . وظلت بريطانيا تحارب فكرة توحيد العالم العربي والإسلامي وتساندها بقية دول أوروبا خشية أن يعيد المسلمون أمجادهم الغابرة . ولذا فإن السياسة الاستعمارية عملت على تمزيق الوطن العربي والإسلامي وتفتيته ومحاربة وحدته .

ويؤكد ذلك ما جاء في اجتماع الدول الاستعمارية في لندن في مطلع القرن العشرين (١٩٠٧) إذ ذكر كامبل بانرمان رئيس وزراء بريطانيا في تقريره عن

(١) عبد الحميد البطريق (الدكتور) : ابراهيم باشا وحروبه في بلاد العرب ص ٣٦ ، القاهرة ١٩٤٨ .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن (الدكتور) : الدولة السعودية الأولى ص ٢٨٥ .

(٣) Bombay Selections, Vol. 24. P. 436.

الاجتماع ما يلي : « إن الخطر الذي يهدد الاستعمار الغربي يكمن في البحر المتوسط الذي يؤلف حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ، والذي يقيم على سواحله شعب واحد يتميز بكل مقومات التوحيد والترابط ، وبما في أراضيهِ من كنوز وثروات تتيح لأهلها مجال التقدم والرفق في طريق الحضارة والثقافة » . وأوصى التقرير لمواجهة هذا الخطر ، بأن تعمل الدول (الاستعمارية) على « تجزئة هذه المنطقة والإبقاء على تفككها ، ومحاربة أي اتحاد يقوم بين أجزائها ، والسعي الدائب إلى تفتيشها عملياً وفكرياً وتاريخياً » . واقترح التقرير كوسيلة عاجلة ، « العمل على فصل الجزئين الإفريقي والآسيوي في هذه المنطقة أحدهما عن الآخر ، وإقامة حاجز بشري قوي وغريب ، في نقطة التقاء هذين الجزئين يمكن للاستعمار أن يستخدمه كأداة في تحقيق أغراضه » (١) .

ويقصد التقرير بالحاجز البشري « إسرائيل » وهذا يؤكد تحالف الاستعمار والصهيونية في محاربة العالم الإسلامي حرباً لا هوادة فيها لأنهم يدركون أبعاد وحدة المسلمين وخطرها عليهم وعلى القضاء على نفوذهم ووجودهم .

وعلى العموم ، فإذا كانت الدولة السعودية الأولى قد انهارت سياسياً ، إلا أن الدعوة السلفية وعقيدة التوحيد بقيت كامنة في النفوس بل وانتشرت في كثير من بلاد العالم الإسلامي وكانت الدعوة السلفية ضياءً للبقعة الحديثة في العالم الإسلامي فتأثر بها رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشام والمغرب أمثال الألوسي في العراق ، والأفغاني في أفغانستان ومحمد عبده في مصر ، والسنوسي في ليبيا ، وخير الدين التونسي في تونس ، وجمال الدين القاسمي في الشام ، وصديق حسن خان في بهوبال ، وأمير علي في كلكتا (٢) . كما قامت مملكة سوكونو في إفريقيا بزعامة

(١) د. محمد أنيس ، د. السيد رجب حراز : الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ص ٣٩١-٣٩٢

القاهرة ١٩٦٧ ، وانظر كتاب خيرى حماد « الوجود الاسرائيلي في المخطط الاستعماري » .

(٢) خير الدين الزركلي : الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٣٧ .

الداعية المسلم عثمان دانفديو ودولة البنجاب الإسلامية التي أسسها الشيخ سيد أحمد^(١) . كما أن انتشار الدعوة السلفية يدحض ما روجته بريطانيا والدولة العثمانية من أكاذيب وافتراءات وتشنيع ضد السعوديين والدعوة السلفية . وسنجد أن الدولة السعودية الثانية بل والثالثة قد قامت على أساس عقيدة التوحيد . ولكن بريطانيا كعادتها وانطلاقاً من سياستها - التي أشرنا إليها - تحاول عرقلة أي دولة موحدة في المنطقة العربية والإسلامية .



(١) محمد عبدالله ماضي (الدكتور) : المصدر السابق ص ٦٤ .